

شجاعة العربية وأوهام النقاء

الأستاذ الدكتور: سعيد السليحي

جدة - المملكة العربية السعودية

ربط علماء العربية بين ما كانوا يستشعرونه من فساد اللسان العربي والاحتكاك بالأُم والأقوام التي تجاور العرب، وردوا ما لمسوه من انتشار اللحن إلى اختلاط العرب الخلص بمن حولهم من الشعوب في الحواضر الإسلامية، وأعادوا الهجنة التي شاعت في الكلام إلى تأثير الموالي والأعاجم بما كانوا يتداولونه من أحاديث تنحرف باللغة عن طرائقها الفصيحة التي جرى عليها العرب في باديتهم التي لا يخالطهم فيها من لا يتحدث بغير لسانهم الفصيح. وحينما سعى هؤلاء العلماء إلى حفظ اللغة العربية من الفساد وما يمكن أن يفضي إليه من اضطراب في فهم لغة القرآن و القدرة على الكلام العربي الفصيح، راحوا يلتمسون ضالتهم لدى أكثر القبائل العربية بعداً عن الاحتكاك بالعوامل الخارجية وأكثرها انعزالاً عن التأثير بالأُم والشعوب المختلفة على النحو الذي أوضحه الفارابي في قوله: و الذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدي وعنهم أخذ اللسان العربي من قبائل العرب هم: قيسٌ وتميمٌ وأسد. فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ وأعظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين¹.

وقد تحرز علماء اللغة ورواتها عن الأخذ عن غير هذه القبائل ممن كانوا يخشون أن تكون العجمة قد أخذت طريقها إلى طرائقهم في القول ولذلك لم يؤخذ من لحم ولا من جذام لأنهم كانوا مجاورين لأهل مصر

¹ - المزهر 1/ 211 ، 212 .

الاقتراح 19 .

والقبط، ولا من قضاة ولا من غسان ولا من إباد لأنهم كانوا مجاورين لأهل الشام، ولا من تغلب ولا من النمر لأنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية، ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس ولا من عبد القيس لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أزد عمان لمخالطتهم للهند والفرس، ولا من أهل اليمن أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم² وهكذا سيطرت فكرة تحري النقاء و الصفاء على أولئك العلماء فلم يأخذوا عن حضري قط ولا عن سكان البراري الذين كانوا يتصلون بسائر الأمم الذين من حولهم. وقد اعترض أبو حيان في شرح التسهيل على ابن مالك حين عني في كتبه بنقل لغة لخم وخزاعة وقضاة وغيرهم، وقال: ليس هذا من عادة أئمة هذا الشأن³، ولم تسلم قريش وهي التي عدّها اللغويون من أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ من هذه الريبة فلم يسعوا إليها عند جمع اللغة لأنهم يرون أن فساد اللسان كان قد سبقهم إليها فاختلطها بالأمم واختلاط الأمم بشعاب مكة فيها طغى على فصاحتها فلم يعد بالإمكان

² - الاقتراح 56 ، 57 .

³ - الاقتراح 57 .

التعويل عليها فاكتفى العلماء بالإقرار بفصاحتها ثم انصرفوا عنها إلى القبائل الأخرى التي استقوا منها اللغة.

وقد نشأ عن توشي الصفاء والنقاء و البعد عن الهجنة أن أصبح الدرس اللغوي تتبعاً للغة فيما كان يعتقد أنه أصلي وفصيح فيها منفصلاً عن سياقات تطور اللغة وما يعرض لها من عوامل التغير الناتج عن احتكاكها باللغات الأخرى. وكان الأصل الذي راح العلماء يتتبعون شواهد وبقاياه هو تلك السجية والسليقة التي كان العرب يتحدثون بها في الجاهلية وصدر الإسلام والتي افتقدوها حين فتحت المدائن ومصرت الأمصار ودونت الدواوين⁴، يقول ابن الأثير متحدثاً عن تلك الحقبة حديث من لا يخفي أسفه على ضياعها: "كان اللسان العربي عندهم صحيحاً محروساً لا يتداخله الخلل ولا يتطرق إليه الزلل إلى أن فتحت الأمصار وخالط العرب غير جنسهم من الروم والفرس والحبيش والنبط وغيرهم من أنواع الأمم الذين فتح الله على المسلمين بلادهم وأفاء عليهم أموالهم ورقابهم فاختلطت الفرق وامتزجت الألسن وتداخلت اللغات"⁵.

وإذا كان فساد الألسن قد تفشى في أعقاب نشوء الحواضر الإسلامية في العراق و الشام فإن كان يطل برأسه قبل ذلك على نحو ما تحدثنا الروايات عن ظهور اللحن في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، والفصاحة التي راح يتلمسها العلماء لدى القبائل المنعزلة في

⁴ - لحن العوام 4 .

⁵ - النهاية في غريب الحديث والأثر 5 .

بأديتها جعلتهم يناون عن القبائل التي تسكن أطراف الجزيرة العربية ويرون أن الضعف والزيغ قد تسرب إليها مبكراً وأنها كانت مستضعفة اللسان بحكم جوارها لغير العرب⁶.

في هذا السياق يرتبط الفساد واللحن و الزيغ والضعف بحركة التمدن والتحضر والانفتاح على الأمم والثقافات المختلفة من ناحية ومن ناحية أخرى يرتبط مفهوم الصفاء والنقاء والفصاحة بعالم البداوة والعزلة والبعد عن التأثير. وقد أفضى الحرص على ترصد هذا النقاء والافتتان به أن غدا الدرس اللغوي درساً للغة في طور بداوتها وعزلتها على اعتبار أن ما يمكن أن يحدثه التحضر فيها من تغيير وما يتركه عليها من أثر لا يتجاوز أن يكون ضرباً من الهجنة التي تتناقض مع قيم الأصالة والفصاحة والنقاء.

يتضح هذا الربط بين فساد اللسان و الاحتكاك بالشعوب الأخرى في دلالة كلمة هجين حيث الهجنة في الكلام ما يلزمك العيب فيه وفي الأنساب ما لم يكن عربياً صرفاً، والهجين هو ولد الأمة وتهجين الأمر تقبيحه⁷ وكذلك كلمة الأعجم التي تدل على من لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان عربي النسب كما تدل كذلك على غير العربي⁸.

هذا التعدد الدلالي لمفهوم الهجنة يفتح لنا باباً للربط بين نزعة البحث عن النقاء والصفاء التي حكمت الدرس اللغوي ووجهت الباحثين فيه وسيطرت على المناهج التي اعتمدها وأفضت إلى النتائج التي انتهوا

⁶ - مقدمة ابن خلدون 489

⁷ - اللسان: هجن .

⁸ - اللسان عجم .

إليها، وتلك العصبية القبلية التي كانت تحرص على تمييز العرق العربي من بين أعراق الأمم الأخرى فتقيمه في مرتبة لا يحظى بها سواه من الموالي والأعاجم والمولدين، ثم تمضي بعد ذلك لتقيم التمايز بين القبائل التي تشترك في صفاء هذا العرق ونقاؤه فتجعلها طبقات تتفاوت في الشرف و المكانة.

وقد شهدت الحواضر الإسلامية عمليات تمييز عنصري حظي من خلاله العرب بالشرف وما يستتبعه من مكانة وحظوة وتروي كتب التاريخ والأدب أن الحجاج أمر أن لا يؤم الكوفة إلا عربي⁹ ولما قبض على سعيد بن جببر وكان قد خرج عليه قال له: أما قدمت الكوفة وليس يؤم عليها إلا عربي فجعلتك إماماً؟ قال: بلى. قال: أفما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة، وقالوا لا يصلح إلا لعربي فاستقضيت أبا بردة بن أبي موسى الأشعري وأمرته ألا يقطع أمراً دونك؟ قال: بلى. قال: أوما جعلتك في سمارى وكلهم من رؤوس العرب؟ قال: بلى. قال: فما أخرجك علي؟¹⁰

ولما نزل الحجاج واسطاً نفى النبط منها وكتب إلى عامله بالبصرة يقول: إذا أتاك كتابي فأنف من قبلك من النبط فإنهم مفسدة للدين و الدنيا، فكتب إليه: قد نفيت النبط إلا من قرأ منهم القرآن وتفقه في الدين. فكتب إليه الحجاج إذا قرأت كتابي هذا فادع من قبلك من الأطباء

⁹ — العقد الفريد 1 / 207 .

¹⁰ — الكامل 1 / 397

ونم بين أيديهم ليقفوا عروقتك فإن وجدوا فيك عرقا نبطيا فاقطعه و السلام.¹¹

ويروى أن أعرابيا ذهب إلى سوار القاضي فقال: إن أبي مات وتركني وأخا لي _ وخط خطين ناحية _ ثم قال: وهجينا لنا _ ثم خط خطا آخر ناحية _ ثم قال: كيف نقسم المال بيننا؟ فقال: المال بينكم أثلاثا إن لم يكن وارث غيركم. فقال له: لا أحسبك فهمت أنه تركني أنا وأخي وهجينا لنا. فقال له سوار: المال بينكم سواء. فقال الأعرابي: أياخذ الهجين كما آخذ ويأخذ أخي؟ قال: أجل، فغضب الأعرابي، وقال: تعلم والله إنك قليل الخالات بالدهناء.¹²

وتحت وطأة هذا التمييز العنصري راح الموالي يفتشون عن قبيلة ينتمون إليها فيدينون لها بالولاء ويحتمون بما لها من جاه ورفعة وربما حاول بعض الموالي إلحاق نسبه بالعرب كالذي تحدثت عنه كتب التاريخ من أن أبا مسلم الخراساني اصطنع لنفسه نسبا عربيا فزعم أنه من نسب سليط بن عبد الله بن العباس¹³ وجاء في الأغاني أنه كان لعلي بن الخليل صديق فارسي فغاب مدة وقد أصاب مالا ورفعة ثم عاد إلى الكوفة وادعى أنه من تميم فقال يهجو:

يروح بنسبه المولي ويصبح يدعي العريبا

¹¹ - محاضرات الأدباء 1/ 318.

¹² - عيون الأخبار 61/3.

¹³ - تاريخ الطبري 383/9.

فلا هذا ولا هذا ك يدركه إذا طلبا¹⁴

أما والبة بن الحباب فكان يدعي النسب إلى العرب فقال فيه أبو
العتاهية :

أوالب أنت في العرب كمثل الشيص في الرطب

هلم إلى الموالي الصي د في سعة وفي رحب

فأنت بنا لعمرو الله ه أشبه منك بالعرب¹⁵

وبوسعنا أن نعقد أواصر التشابه بين تقسيمات اللغة والطبقات المكونة
للمجتمع فنربط بين الكلمات الفصيحة والعرق العربي الخالص، وبين
الكلمات المعربة التي استعارها العرب من اللغات الأخرى وتصرفوا فيها
بفئة المهجنين الذين يولدون لآباء عرب وأمهات أعجميات. أما ظواهر
اللحن وفساد اللسان فشبيهة بالموالي والنبط والأعاجم الذين عدهم الحجاج
مفسدة للدين و الدنيا.

وإذا كان التمييز العنصري للمجتمع الإسلامي يعد خروجاً على ما
أرساه الإسلام من قواعد المساواة بين الأمم والشعوب بحيث لا يصبح هناك
فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى وأن المؤمنين تتكافأ دماؤهم ويسعى
بذمتهم أديانهم، فإن مبحث التمييز بين ألفاظ اللغة وما هو عربي منها
ودخيل عليها قد أثار شيئاً من البلبلة عند الوقوف على لغات العجم كما

¹⁴ - الأغاني 149/13 .

¹⁵ - الصاحبي 45/44.

جاءت في القرآن فروي عن ابن عباس وعن مجاهد وابن جبير وعكرمة وعطاء وغيرهم من أهل العلم أنهم قالوا في أحرف كثيرة إنها بلغات العجم منها: - طه، واليم، والطور، والربانيون، فيقال: إنها بالسريانية، ومنها قوله: جل وعز: الصراط، والقسطاس، والفردوس، يقال إنها بالرومية. ومنها قوله جل (كمشكاة) و (كفلين من رحمته) يقال: إنها بالحبشية وقوله (هيت لك) يقال: إنها بالهورانية¹⁶. وقد أنكر أبو عبيدة هذا القول ورأى أن القرآن إنما نزل بلسان عربي مبين فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، ومن زعم أن كذا بالنبطية فقد أكبر القول، وعزا ما في اللغات التي نسبت إليها تلك الألفاظ إلى أنه قد يوافق اللفظ ويفارقه ومعناهما واحد وأحدهما بالعربية والأخر بالفارسية أو غيرها¹⁷.

وقد جاء في الصحابي أن أهل العربية ويعني بهم اللغويين هم الذين أنكروا القول بورود كلمات غير عربية في القرآن بينما أهل العلم من الفقهاء هم الذين قالوا بوجود أحرف في القرآن بلغات العجم¹⁸. ولنا أن نرى أن اللغويين قد انطلقوا في إنكارهم ذلك من هيمنة فكرة النقاء والصفاء عليهم و التي ليست ببعيدة عن نقاء العرق و خلوصه من الهجنة وهي الفكرة التي نجا من سلطانها الفقهاء الذين تتساوى الأمم والشعوب أمام أحكامهم الفقهية.

¹⁶ - الصحابي 43.

¹⁷ - الصحابي 45.

¹⁸ - الصحابي 45.

وكانت محاولة التوفيق بين أهل العربية والفقهاء قد تمثلت في القول بأن أصول هذه الكلمات عجمية كما قال الفقهاء إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصرت عربية ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب فمن قال إنها عربية فهو صادق. ومن قال عجمية فهو صادق¹⁹ وذهب الجواليقي في المعرب إلى القول: هي أعجمية باعتبار الأصل عربية باعتبار الحال²⁰.

ولم يكن أبو عبيدة في إنكاره القول بورود كلمات أعجمية في القرآن ينطلق من تصوره لمقتضى قوله تعالى: (إنا جعلناه قرآنا عربيا) فحسب وإنما كان ينطلق من اطمئنانه إلى غنى العربية بحيث لا تغيب عنها كلمة فتأويل قوله أتى بأمر عظيم وكبير أن القرآن لو كان فيه من غير لغة العرب شيء لتوهم أن العرب عجزت عن الإتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها وفي ذلك ما فيه²¹.

وإذا كانت محاولة التوفيق هذه هي الأساس الذي انبنت عليه الكتب التي تم تأليفها حول المعرب والدخيل فإن الإيمان بقوله تعالى: (إنا جعلناه قرآنا عربيا)، وقوله تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه)، وقوله تعالى: (بلسان عربي مبين) لم يمنع من تصنيف كلمات اللغة بما فيها لغة القرآن، إلى كلمات عربية بالأصالة وكلمات عربية

¹⁹ - الصاحبي 46.

²⁰ - الزمر 1/269.

²¹ - الصاحبي 64.

بالولاء تكتسب عروبتها بقدر ما يتصرف فيها العرب حينما حولوها من ألفاظ للعجم إلى ألفاظ للعرب فصارت عربية.

وإذا كان بعض الأعاجم قد بحث لنفسه عن مكانة في المجتمع العربي عن طريق الانتماء إلى العرب إما بادعاء النسب أو بالولاء فإن منهم فئة رأت أن طريقها إلى العرب هو علم العربية وبذلك عرفت علوم العرب عددا كبيرا من العلماء الذين يعودون بنسبهم إلى الفرس أو الروم ممن كان يحدوهم سعيهم الدؤوب إلى التميز في المجتمع العربي إلى التميز في الثقافة العربية حتى أصبح العرب أنفسهم بحاجة إليهم في تلقي علوم العربية وأصبحوا قادرين على تخطئة المتأخرين من العرب حينما يخرجون عن سنن العربية التي تم تدوينها من على ألسنة العرب الذين لم تفسد ألسنتهم. يروى أن ابن المقفع كان في جمع من العرب فراح يسألهم عن خير الأمم فظنوا أنه يشير إلى قومه من الفرس ولكنه أخبرهم أن خير الأمم هم العرب فضحكوا فقال: (إني ما أردت موافقتكم ولكن إذا فاتني حظي من النسب فلا يفوتني حظي من المعرفة).²² ومن هنا كانت المعرفة العربية هي النسب البديل لأولئك الذين يشعرون بأهمية أن ينتسبوا إلى العرب. وتأسست بذلك المفارقة التي المح إليها عبد الله بن الأهم حينما مر بقوم من الموالي وهم يتذكرون النحو فقال: لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده.²³

²² - العقد الفريد 50/2.

²³ - العقد الفريد 51/2.

غير أن بإمكاننا أن نلمح للمسألة وجها آخر إذا ما نظرنا إليها في ظل الصراع الحضاري الذي كان يدور في المجتمع الإسلامي آنذاك بين العرب، وإليهم تنتمي الطبقة الحاكمة، وشعوب الأمم الأخرى الذين تحولوا إلى موال وأعاجم ذلك أنه إذا كان شعور العرب بنقاء دمهم جعلهم يتخذونه ذريعة لمصادرة سواهم من الأمم والشعوب فإن الدرس اللغوي المؤسس على فكرة النقاء الثقافي يسلب منهم نقاءهم الثقافي. وإذا كان الموالي لا يرتقون، في نظر العرب، إلى مرتبة الشرف لافتقارهم إلى الانتماء إلى العرب فإن العرب أنفسهم في ظل ما ارتكزت عليه جهود علماء العربية لا يرتقون، في نظر الموالي، إلى مرتبة التشرف بالانتماء إلى العربية لافتقارهم إلى ثقافتها وعلومها التي لا توجد في غير البوادي التي لم تطرق أبواب الحضارة ولم تطرق الحضارة أبوابها.

كان الموالي يعيشون غربة اجتماعية في المجتمع العربي ولكن مناهجهم في دراسة العربية استطاعت أن تؤسس لغربة ثقافية بدت فيها اللغة العربية لغة تؤول نحو الفساد وبدا فيها العرب يتحدثون بغير لسانهم وبدا أمرا قدريا أن يفقد العربي ثقافته بقدر ما يكسب من تمدنه وحضارته.

من هنا كان الذهاب إلى عمق الصحراء العربية في عزلتها وبعدها عن المؤثرات الحضارية ضربا من المصادرة للحواضر العربية، وراح العلماء يلتمسون للعربية الخالصة جذورا في القبائل المنقطعة عن المدنية ثم يذهبون إلى ما هو أبعد من ذلك حينما يكون العرب العاربة أو العرب الخالص أمما فنيت ولم يعد لها وجود في غير كتب الرواة والمؤرخين فهم تسع قبائل من

ولد إرم ابن سام بن نوح: عاد وثمرود وأميم وعبيل وطسم وجديس وعمليق
وجرهم ووبار أما المتبقون فهم عرب متعربة وعرب مستعربة وليسوا
بخلص²⁴.

كان الدرس اللغوي في بعض جوانبه رداً على ما كان العرب يتوهمونه
من انتماء للثقافة العربية ومن خلوص ونقاء في العرق والدم وكانت
منطلقاته تؤسس لقطيعة حادة بين العربي والعربية، العربي من حيث إنه
كائن حي قادر على التفاعل مع العالم من حوله والاستفادة منه والإفادة
له، والعربية باعتبارها لغة لقوم زالوا أو هم في طريقهم للزوال.

وإذا كنا اليوم نهين أنفسنا لمواجهة حضارية لا نمتلك كثيراً أو قليلاً
من وسائل الاستعداد لها، فإننا مطالبون بردم هذه الفجوة التي تمتد عميقاً
في تاريخنا وتنخر على نحو أعمق في وعينا، وأن نعيد وصل اللغة
بالإنسان والإنسان باللغة لا عن طريق توسيع الفجوة بيننا وبين العالم
وإنما عن طريق إعادة النظر إلى العربية باعتبارها لغة للإنسان في مدنيته
وحضارته وتطوره.

ولنا إن أحسنا قراءة القرآن وتدبرنا لغته أن ندرك كيف أنه جاء
نموذجاً للغة المتحضرة التي تلتقي فيها الثقافات وتتجاوز اللهجات تماماً
كما كانت تتجاوز القبائل وتتعايش الأمم في مكة المكرمة التي كانت آنذاك
أما للقرى بكل ما يمكن أن تعنيه تلك الأمومة من احتضان للتعدد وتسليم
بمبدأ التجاور. وبذلك نلج إلى باب يمكن لنا من خلاله أن نلمس شجاعة

العربية مخلصين أنفسنا من أوهام النقاء والصفاء التي يمكن لها ان تكون
سمة لمجتمعات موعلة في عزلتها وبدאותها ولا يمكن أن تكون وصفا
لمجتمعات متحضرة تعيش في معترك الحياة المدنية.